محمد إسعاف النشاشيبي

قضى محمد إسعاف النشاشيبي يوم الخميس ٢٢ يناير سنة ١٩٤٨ — ١١ ربيع الأول سنة ١٣٦٧ وحيداً في أحد مستشفيات القاهرة التي كان يحبها حبًّا جمًّا ، والتي كان يفد إليها كل عام من فلسطين فترتقب ندوات الأدب والعلم مجلسه حيث يكون الصدرَ فيه ، محدّثاً وراوياً كأنما وعى تاريخ هذه الأمة العربية كله في صدره يرويه كأنه يقرأ من كتاب ويقصّه كأنه يتلوه من صحيفة. لقد خصّه الله بذاكرة قوية وحافظة لم تتلمّها الفيخوخة إلاّ قليلاً .

وكانت زيارة النشاشيبي للقاهرة هذا الشتاء هي آخرُ زياراته ، فهل كان يعلم وهو يودّع فلسطين المجاهدة في سبيل ربّها وحقّها وأرضها أنه وداع لغير عودة ، وأنها رحلة لغير رجعة . وأنه تركها واليأس يغلي فيها لا هرباً من الجهاد إذا دعا داعيه ، ولا استسلاماً للنجاة ، ولكنه تركها مستشفياً بطب مصر الآسية ، ومستمتعاً بسماء مصر الدافئة الضاحية ولكن الطب خانه هذه المرّة . . فلحوناه : —

والناس يلحَنون الطبيب وإنما خطأ الطبيبَ إصابة الأقدار

كان مجلس النشاشيبي في ندوة فندق « الكونتنتال » مجلساً يملأ السمع والبصر والفؤاد تدلو أنّ الرجل في ذاته كان ضئيلاً في جسمه نحيلا في شكله . ولكنه كان يضرع الرجال الطوال بمواريثه ومعارفه ، كأنما كان الشاعر العربي يتحدّث بلسانه في قوله .

إذا كنتُ في القوم الطوال علوتهم بمعارفة . معنى يقال طويل

ولا أذكر أنني تخلفت عن مجلس النشاشيبي في « الكونتنتال » في السنوات الأخيرة إلاّ قليلاً مما ألمت به ضرورات لم أستطع لها دفعاً . وكان أحبّ الى نفسي أن أبتدر مكاني في الندوة حيث تتحلق الحلقة وتتسع الدائرة ، ويأتي زائر يتفسح بكرسيه في المجلس فتتسع

له ، ثم نأخذ بأطراف الأحاديث بيننا ، كلٌّ على قدر ما وهب الله له من موهبة الكلام فإذا النشاشيبي يوجه الحديث في المجلس ويديره ، وإذا به يصل الحديث بالقديم ، والحاضر بالماضي ، وإذا هذا الرجل الضئيل المغروي يتحرك كأنما مسّه شحنة من كهرباء ... فتشيع الكهربائية في جنبه اللأمعة ، وفي صوته الجهوري وفي ألقائه الذي يهتز فيه ويضطرب ويقوم ويقعد كأنما يريد أن يجسّم المعاني بهذه الحركات الانفعالية التي لم أشهد لها ضريباً فيمن سمعت من الخطباء . .

على أنّ هذه الجوانب الشخصية من أسعاف النشاشيبي ليست غرضاً لي في هذا المقال ، فعند كل أديب اتصل به سيلٌ منها لا ينقطع . وهي جوانب لم ينتقدها إلاّ الذين داجوه وأحسّوا أنهم ودّوها إلى يوم النشور . . . وما تعطلت دورة الأرض ولا تعوّق مسير الحياة ولا خسف القمر لموت مخلوق .. حتى الأنبياء على جلال رسالاتهم . فالحياة ماضية ، وهذه ندوتنا تنعقد كما هي — فإنّ الناس لا يموتون لموت واحد من البشر ... ولكنها عطلت من النشاشيبي وأصبحت منه خلاء . ونحن من السابقين على الأثر . فلم يبقَ إلاّ الجانب العام من حياة الرجال ، وهو أبقى على الأجيال .

* * *

لقد أسهم النشاشيبي في المكتبة العربية ببضعة من الكتب ، تمتاز جميعها إلاّ كتابه « الإسلام الصحيح » بصغر أحجامها وعظم أقدارها . وكلها تدور حول الفكرة العربية التي ملكت على الرجل منافذ حسه . والعربية عند النشاشيبي تتمثل في إثنين : لغة العرب ورجال العرب . وأيما قلبت كتبه فلن تجد فيها غير « عربي » يشيد به النشاشيبي ويرفعه الى مراتب الخلود ، وغير لغة يهون على النشاشيبي أن يموت قبل أن يشهد يوم تمامها وحسبك أن تستعرض كتبه — أو تقرأ عناوينها على الأقل — لتعرف مبلغ صدق هذه النظرية . فمن كتبه : — « كلمة في اللغة العربية » و « قلب عربي وعقل أوربي » و « العربية وشاعرها الأكبر » و « اللغة العربية والأستاذ الريحاني » و « العربية في المدرسة » . ومن كتبه في أبطال العربية والإسلام : — « البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد أحمد

شوقي » و « العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي » و « مقام ابراهيم » يقصد به البطل العربي المجاهد : إبراهيم هنانو

لقد حصل النشاشيبي في العربية ملكة سليمة قويمة لم تأته عفواً ولم تهبط إليه اعتباطاً. ولكنه نالها بعد الكد والجد ، والقراءة والحفظ ، والبصيرة والفهم ويقول في ذلك بعبارته الأنيقة : « إني لا أدري كيف يمكن أن ينابع الفتى ويفصح ، ويبدع الأقران ويبرع ، ويعيش في العلم بأرحب باع ، ويحل منه في المنبسل اليفاع وهو لم يدأب ولم يشق ولم يطل وقوفه في الشمس ليطول وقوفه في الظل ، ومن الذي أنبأهم أن الاجادة في المقال قريبة المنال »[1].

وأكاد أجزم أن غرض النشاشيبي من كتابه « كلمة في اللغة العربية » هو حث الأدباء على السهر في التحصيل ، وحض الشباب على الدأب في قراءة التراث العربي ، حتى لا يجيء آخر الزمان أديب مفتون أو شاعر مجنون أو كاتب ضعيف يزعم لنفسه أدباً أو شعراً ، وهو معطل الأداة قليل المحصول عديم المعرفة بالأصول . ويظن المكين أن المكانة الأدبية تُنال بألفاظ تسوَّد بها الصفحات .

وإذا كانت العربية صعبة كما يشهد الذين تفذوا إلى أعماقها من أبنائها ، فإن النشاشيبي كان يرى (أن الصعوبات في اللغات دليل خير ودليل قوة) [2] . ومن أجل هذا سهر من أجل العربية . وعنّى نفسه بها طول حياته ، ونبش — تقريباً — كل كتبها . حتى لم يكن يند عنه كتاب أو يشذ عن محصوله بيت من الشعر أو طرفة من الحديث أو حادثة من التاريخ

ولا أدل على عناء النشاشيبي في سبيل العربية وتعبه في تحصيلها من أنه لم يكد ينتلت من يديه كتاب من كتبها إلا قرأه وحفظ منه وروى عنه . ولقد بدأ ذلك جليًّا في مجموعة « نقل الأديب » التي كان ينشرها في مجلة « الرسالة » على فترات تتقارب حيناً وتتباعد حيناً آخر ، حتى بلغ مجموع ما نشر منها الى عدد ١٩ يناير سنة ١٩٤٨ (٩٦٩) نادرة جمعها على طول العمر كله واختارها من بين مئات من الكتب من أمثال « عيون الأخبار » و « الحيوان » و « شرح نهج البلاغة » و « معجم البلدان » و « خاص الخاص »

(١) « كلمة في اللغة العربية » صفحة ٢٢ . مطبعة بيت المقدس (٢) المصدر السابق ص ٢٣

و« اليتيمة » و « تاريخ الطبري » و « نزهة الألبـاء في طبقـات الأدباء » و « الأغاني » و « سيرة ابن هشام » و « البيان والتبيين » و « نهـاية الأرب » و « محاضرات الأدباء » و « النجوم الزاهرة » و « الاقتضـاب في شرح أدب الكتاب » و « تاريخ بغـداد » و « عيون الأنباء في طبقات الأطبـاء » و « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » و « نفح الطيب » و « بدائع البدائه » و « الكنايات » و « وفيات الأعيـان » و « الروضتين » و « الضوء اللامع »

ولا يظن ظان أن هذا الاختيار الحافل من تراث زاخر بالأخبـار والنوادر والطرائف مطلب يسير أو عمل هين ، ولـكنه شيء يدل على ذوق مختاره أولاً : وعلى أهدافه ومراميه ثانياً : وعلى مدى نيته من الانتفاع به ثالثاً : ولعلها حيرة أية حيرة أن تقف في روضـة مزهرة لتختار أطيب ما فيها شكلاً ولوناً وعرفاً .... وقديماً عبر الشاعر عن مثل هذه الحيرة بقوله : —

تحير في الرياض فليس يدري أيجني الروض أم يجني الأقاحا

ولـكن النشاشيبي وقف في روضـة الأدب العربي والتاريخ العربي الحـافل بأمجاده وحكاياته ... فلم يتحير في الرياض ، ولـكن هدته بصيرة عربية وفطرة عربية وهمة عربيـة إلى أن يقطف أطيب ما في الرياض : وهو في ذلك ليس متزمتاً ولا متوقراً ، ولـكنه قد يخلع التوقر أحياناً فيروي أطيب الفكاهات ، وأند شعر المتـاع ، حتى ليسأل سائل كيف يروي النشاشيبي في « نقله » قول سعيد بن حميد :

تمتع من الدنيا فانك فانٍ وإنك في أيدي الحوادث عانٍ
ولا يأتين يوم عليـك وليلة فتخلو من شرب وعوف قيان
فاني رأيت الدهر يلعب بالفتى ويقتله حالين تختلفان
فأما التي تعفي فأحلام نائم وأما التي تبقى لها فأماني [1]

وحتى ليسأل سائل آخر كيف يروي النشاشيبي « في نقله » قول حنين بن اسحاق « إنه اتفق له هذه اللفظة الوجيزة الشريفة البديعة التي لم أسمع لبلغاء عصرنا مثلها في الجمع بين التجنيس

(١) نقل الاديب : مجلة الرسالة العدد ٢١٨ ص ٣٩٩

والطباق والترصيع مع حسن المعنى وجودته وصحته وهي : — قليل الراح صديق الروح وكثيره عدو الجسم » . (١)

نعم ! كان لاسعاف النشاشيبي مثل هذه الروايات في « نقله » ، وكثيراً ما كنت أعدها عليه ... ولكنه نشر كثيراً من فضائل النفس العربية حتى خيل اليّ أنه كان يتحدى بها نفوس الناس جميعاً من غير العرب . وكأنه كان يتعمد ذلك تعمداً في « نقله » . ولا أدل على ذلك من هذه الملحة التالية : —

تذكرون يوماً بحضرة محمد بن اسماعيل من ملوك بني نصر في الأندلس معنى قول المتنبي :

يا خدَّ الله وَرْدَ الخدود وذلَّ قدودَ الحسان القدود

وقول امرىء القيس :

وإن تك قد ساءتك مني خليقةٌ فسُلّي ثيابي من ثيابك تنسل

وقول ابراهيم بن سهل الاسرائيلي .

إني له من دمي المسفوك مغتفر أقول حُمِّلتهُ من سفكه نَعَما

فقال بديهاً على حداثته : — بينهم ما بين نفس ملك عربي ، وشاعر عربي ، ونفس يهودي تحت الذمة ... وإنما تنفس النفوس بقدر همما) (٢)

وهذه الموازنة الخلقية بين فضيلة النفس العربية والنفس اليهودية كانت تظهر في النقل من حين الى حين .. ! فقد نشر في الرسالة سنة ١٩٤٦ عدد ٦٦٧ بعنوان « وأبناء اليهود » هذه الطرفة التالية : — (قال الصفدي : كان أبو البركات بن ملكا يهودياً وأسلم ، وكان كثيراً مايطعن اليهود ، قال مرة بحضور ابن التلميذ : لعن الله اليهود . فقال : نعم وأبناء اليهود ؟ فوجم أبو البركات لذلك وعرف أنه عناه ...)

***

أما تعصب النشاشيبي للعربية لغةً وجنساً فقد كان بين واضح من كلماته وخطبه ومقالاته فقد كتب كلمة في مجلة الرسالة عن « اللغة العامية والحروف اللاتينية بامضاء « السهمي » (٣)

(١) عن الرسالة ص ٢٠٢ عدد ٧١١ (٢) عن الرسالة عدد ٧١١ ص ٢٠٢
(٣) الرسالة عدد ٢٣٠ سنة ١٩٣٧

حمل فيها حملة من نار على الدعاة للحروف اللاتينية ، ولم يكن في هذه الحملة الثانية غير زاد عن كلام قديم للشيخ ابراهيم اليازجي في مجلة « الضياء » .

وقد بانت هذه الروح قوية في الكلمة التي عنوانها « لبنان والعربية » التي كتبها بمناسبة إنعام رئيس جمهورية لبنان عليه بوسام الاستحقاق المذهب ، حيث قال : (وإنا أمم اللسان الضادي العرب ، وان لغتنا هي العربية ، وهي الارث الذي ورثناه ، وإنا لنتيقون ، والآباء هم الآباء واللغة هي تلك اللغة بأن نقيّ عربية الجنس وعربية اللغة — نقيّ العربيتين مما يضيرها أو يوهنها) (١)

ولقد نفى الجنس العربي بمحنة اليهود كما نفى بهم قبل الاسلام وابان انتشاره ، فصبر العرب لهم وصابروا ورابطوا لانهم يؤمنون بأن الله مع الصابرين ، وقد لا أعرف أن النشاشيبي اشترك مع المجاهدين بمال لانه لا يمالن بمكرمة ، أو اشترك معهم بسيف لان ثلاث علل قاسية قد اصطلحت عليه فهدته في آخر العهد هدًا . ولكنني أعرف أنه كان يوجه قلمه في كل مناسبة . ولسانه في كل فرصة ، وخاصة حين أعلن قرار تقسيم فلسطين . فاذا « نقل الأديب » كله في شهر ديسمبر سنة ١٩٤٧ يدور حول الجهاد والجلاد والاستشهاد وإذا النفس العربية الكريمة المجاهدة تظهر في مثل هذه الرواية الشعرية عن « عمرو بن براقة » حيث يقول :

كذبتم وبيت الله لا تأخذونها مراغمة ما دام للسيف قائم
متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حميًّا تجتنبك المظالم

وإذا « نقل الأديب » كله في الأسبوع الثالث من ديسمبر الماضي يحمل هذه العناوين « أمثال » في الشجاعة العربية ، « أسيب زوجها وأحرها وأبرها » و « الجنة تحت البارقة » « نحن والله أهل الحرب » « الا بحبث ترى المنايا بأسودا » « فعليكم بالجهاد » « عن أحسابكم ذودوا » « كذبتم وبيت الله لا تأخذونها » « نساؤهم كرجالهم » « فأنا أرابط حتى أموت »

وقد برع اللطفي في اختيار العناوين لكل نادرة من نوادر « نقل الأديب » ليكون العنوان أدل على الغرض منها وأنفذ الى القصد إليها . وكان يتخير العنوان أحيانًا من النص نفسه . وترى ذلك واضحًا في كتابه « البستان » الذي جمع فيه — لتلاميذ المدارس — أنضر

(١) مجلة الرسالة عدد ٧٢٢ سنة ١٩٤٧

ما في الروضة العربية من ورود . وكذلك لم يكن توفيقه في عناوين « النقل » بأقل من توفيقه في اختيار « النقل » نفسه .

ولم يكن تعصب النشاشيبي للعربية غفلة منه عما للثقافة الأوربية من قيم . فقد كان يعرف الفرنسية ويعرف أحسن ما فيها للعقل والعلم والحضارة . وكان يرى أن الاكتفاء بما نحن فيه لا يهيئنا — كأمة لها ماض مجيد — أن نقتعد مقاعد الغرب اليوم في المؤتمر العالمي. وكان يرى أن الأخذ بأسباب العلم الصحيح — كما فعل الغرب اليوم — هو الطريق الموصل باقترب إلى استعادة مجدنا . وكان يعالن بذلك في مجالسه وفي كثير مما يكتب ، حتى كان كتابه القيم : — (قلب عربي وعقل أوربي) الذي يقول فيه : — (تلكم مدنية الغرب فنظير كل الخير في أن نعرفها ، والشر كل الشر في أن نجهلها ، وإنا إذا عاديناها وهي السائدة الساطية استعلتنا ، وإنا اذا نابذناها ونبذنا عليها حقرتنا ، وهي مدنية قد غمرت الكرة الارضية . فليس ثمة عاصم وإن أويت الى المريخ)[1] ويقول في موطن آخر : (فالعربي الذي يكره الينا هذه المدنية — يعني الغربية — ويثلب علمها ونظامها وفنها ، ويسخر من روادها لا يروم — وحياتكم — أن نحيا في هذا الوجود أو أن نسود ، بل يريد أن نبيد أو أن نعود في الناس مثل العبيد)[2]

وقد يظن من يرى تعلق النشاشيبي بقديم العرب وجنوحه الى الغريب من الأساليب وميله الى رواية الأخبار أنه رجل قديم النزعة رجعي الفكرة ، ولكنه — رحمه الله — كان جامعاً بين القديم والجديد ، حتى لقد استوى منه مزاج عجيب خاص يجمع بين عربية القلب وغربية العقل . . . . وما أحوجنا في هذه الأيام الى قلوب عربية في عقول — لا في عقليات — غربية .

أحسن الله الى اسعاف النشاشيبي قدر ما أحسن الى العروبة لغة وجنساً .

عمر عبد الله حسن

(١) قلب عربي وعقل أوربي . ص ١٣ (٢) المرجع السابق . ص ١٥